سُبل الهدى في نظر علماء العرب

للدكتور محمد سويسي

ان العلمـــاء المسلمين قد جعلوا العقـــل في المنصب الاعلى، وكثيرا ما صرّحوا « انـــه أعظم نعم اللـــه عندنا، وانفع الاشياء لنـــا، واجداها علينا » (١) وهو « الشيء الذي بـــه نتصور افعالنا العقلية قبل ظهورها للحس، فنراها كأن قـــد احسسناها، ثـــم نتمثل بأفعالنا الحسية صورها فتظهر مطابقة لمـــا تمثلناه وتخيلناه منها » (١) واستنتجوا من ذلك انـــه حقيق علينا « الا نجعل العقـــل، وهو الحاكم، محكوما عليه، ولا وهو الزمام مزموما ، ولا وهو المتبـــوع تابعا ، بل نرجع في الامور اليـــه، ونعتبرها بـــه، ونعتمد فيها عليـــه » .

وجعلـــوا اسمى اغراضهم « طلب الحق لذاته »، وجعلوا طالب الحق « المتَّبِـــع الحجة والبرهان ، لا قـــول القائل الذي هو انســـان » (١) .

وقـــال بعضهم: « البرهان القاطع لا يُدرا بالظواهر، بـــل يسلَّـــط على تأويل الظواهر ». وقال متطرفوهم : « اذا تعارض العقـــل والنقل في مطلوب فيتبع العقل ، وينتبع المخلص في المنقـــول ليوافق المعقول، إن أمكن، والا يعـــد المنقول من قبيل المتشابهات » (٢) .

ولكنهـــم سرعان ما تيقنوا ان لا سبيل للعقـــل في تأويل بعـــض المسائل، وسرعان مـــا اضطروا الى تقسيم العلوم الى علوم نقليـــة والى

---

(١) الرازي : الطب الروحاني ص ١٨

(٢) أبو البقاء الحسيني : كتاب الكليات ص ٧١٥ وما بعدها

علـوم عقلية . واعترفوا ان سبل الحـق مختلفة متعددة بحسب ميادين البحث ؛ وقد تتضافر المصـادر المعوَّل عليها في مسالة من المسائـل فيأتي بعضها لبعض مساعدا ومعينـا ...

ولخصـوا هذه المصادر في الحس والحدس والعقـل والقياس والالهام والوحي الالهـي .

فيفصـح البيروني عن غرضه في كتابـه « الآثار الباقية » فيحصره في « استفراغ الوسع واستنفاد الجهـد في الابانة عن مقصده علـى حساب ما بلغه علمـه إنْ بسماع وإنْ بعيان وقياس » (٣) ويضيـف « ان اقرب الاسباب المؤديـة الى ما سئلت عنه هو معرفة اخبـار الامـم السالفة وانباء القرون الماضية،لأن اكثرها احوال عنهم ورسـوم باقيـة من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بمـا يشاهَد من المحسوسات (٣) » .

ويجمـع ابن الهيثم بين الحس والنظر فيقـول : « فرايت انني لا اصل الى الحق إلاّ مِـن آراء يكون عنصرها الامور الحسية،وصورتهـا الامـور العقليـة » .

ويقول ابـن سينا : « ان النفس ، بعد ان تستعين بالحواس ، ترجع الى ذاتهـا شيئا فشيئا (٤) » اي انها تعتمـد أولا على المـادة ثم تتخلص منها مقدارا فمقدارا،كيما ترتقي الـى أحكام معقولة صرفة ، وكثيرا ما عاد ابـن سينا الى هذا المعنى المتمثل في كون « الجسـم لا بـدّ منه لتستكمل النفس قوتهـا النظرية » .

« والانفس تحدث كلما تحدث مـادة بدنية صالحة لاستعمالهـا اياهـا » (٥) .

---

(٣) الاثـار الباقيـة ص٤

(٤) المجاة ص ٥٠

(٥) الشفاء ج ١ ص ٢٥٤

والجسم بحواسه الظاهرة والباطنة هو الذي يقدم للعقل الادراكات الجزئية المشخصة،فيحاول العقل بالتفكير فيها ان يستخرج منها الادراكات الكلية والمعارف المرتبطة بها ...

وعن علاقة النفس بالبدن يقول ابو الثناء محمود بن عمر الشيباني المعروف بابن رقيقة (ت. بدمشق سنة ٦٥٣هـ / ١٢٨٧م) من قصيدة شديدة الشبه بعينية ابن سينا (الطويل) :

أقول لنفسي حين ابدت تَشَوُّقًا الى العالم الاعلى،رويدك يا نفسي
مُحالاً ترومين النجاة وانت في المهالك من جنس الطبيعة والحسّ
ودونك بحرٌ إن تعدّيت لُجّه امِنْتِ وفُزتِ بالخلاص من الحبسِ
فان رمتِ وصلا نحو سنخك فاكشفي غطاءك وانضي ما عليك من اللبسِ
ولا تقبلي نحو الكثيف فتحرمي مجاورة الاطهار في حضرة القدسِ

الى ان يقول :

وصلت على كره الى الهيكل الذي به اعتضت بالذعر الطويل عن الانسِ
وما كان هذا الوصل الا لترجعي منزهة بالعلم عن وصمة الوكسِ (٦)

ولئن زعم جابر بن حيان أن الصناعة « انما تكون لذي الراي الصحيح،والقياس الواجب،والدرس الدائم للعلم الحق الواضح »،وانها « انما تحتاج الى حجج وبراهين »،وان « البرهان أصدق شاهد واعدل حاكم » (٧) فان معظم علماء العرب يقولون بوجوب التجربة المادية، وباستقراء الموجودات وتتبّع خواص المحسوسات ؛ ومن امثالهم : « المشاهدة اقوى دليل ».ويقول ابن البيطار : « فما صحّ عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لدي بالخبرة لا الخبر ، ادخرته كنزا سريا ،وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيا » (٨) .

---

(٦) عيون الانباء ج ٢ ص ٣٦٦

(٧) كتاب اسطقس الاس الاول نشرة هلميارد ، باريس ١٩٢٨ ص ٧٠ — ٧١

(٨) من مقدمة كتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية

ويقول البيروني : « انما يلـذّ العاقل لـذّة نفسانية اذا لاحظها بعين البصيرة والاعتبار ، كما يلـذّ الغافل لـذّة جثمانية في الاصطباح والاغتباق ، والتقلب بين الخمـر والخمار ... » ويستشهد بقـول اللـه تعالى ، وقولُه الحقّ المنـير : « ويتفكرون في خلـق السماوات والارض ؛ ربّنـا ما خلقت هذا باطلا » .

ويربـط ابن سينا بين التجربة والتذكّر، وهي فكـرة افلاطونيـة، فيقول : « اذا تكرر في احساسنا وجود لشيء مثل الاسهال للسقمونيا ، والحركات المرصودة للسماويات، تكرّر ذلك منـا في الذكر . واذا تكـرر منـا ذلك في الذكر حدثت لنـا منه تجربة بسبب قياس اقترن بالذكـر . وهو أنـه لـو كان هذا الامر ، كالاسهال مثلا عن السقمونيا ، اتفاقيـا فرضيا ، لا عن مقتضى طبيعته ، لكـان لا يكون في أكثر الامر من غـير اختلاف ، حتى انـه اذا لم يوجد ذلك استندرت النفس الواقعة،فطلبـت سببا لمـا عرض من انـه لم يوجد . واذا اجتمع هـذا الاحساس وهذا التذكر مع هـذا القياس، اذعنت النفس بسبب ذلـك التصديق بـأن السقمونيا من شأنهـا،اذا شربت،أن تسهل صاحبهـا » (٩) ويضيف :

« ان التجربة ليست تفيـد العلم لكثرة ما يشاهد على ذلك الحكم فقـط ، بل لاقتران قياس به قد ذكرناه . ومع ذلك فليس تفيد علما كليا قياسيا مطلقا بـل كليا بشرط » . ويواصل ابـن سينا حكمه على التجربة بقولـه :

« ولسنا نقول ان التجربة أمـان عن الغلط،وانها موقعة لليقين دائمـا ؛ وكيف والقياس ايضا ليس كذلـك ! بـل نقول ان كثيرا ما يعرض لنـا اليقين عن التجربـة ، فيطلب وجـه ايقاع ما يوقع منها اليقـين» (٩) وممـا نلاحظ في هذه الفقرات :

اولا : ان ابـن سينا يقرن ما تكرر في احساسنا بالتذكـر ؛ وهي نظرة،كما اشرنا اليه ، مستمدة مـن الفلسفة الافلاطونية ، ويلخصهـا الفارابي فيما يلـي :

---

(٩) الشفاء المنطق ج ٥ البرهان ص ٩٥

« ان التعلم تذكّر ، وان التفكر هو تكلف العلم ، والتذكر تكلف الذكر ، والطالب المشتاق متكلف ؛ فمهما وجد مهما قصد معرفته طلب دلائل وعلامات ومعاني ما كان في نفسه قديما ، فكأنه يتذكر عند ذلك» . بل هو يتجاوز ذلك ويقول : « ان العقل ليس هو شيئا غير التجارب ، وكلما كانت هذه التجارب اكثر كانت النفس أتم عقلا ... » (١٠) .

ثانيا : انه يرى أن العلم الحق هو اليقين الذي تطمئن له النفس، ويعترف ان المعرفة المعتمدة على التجربة وحدها انما هي معرفة نسبية لا تبلغ اليقين المطلق ، فكيف تكتسب المعلومات اذن ، وما هي طريقة الكشف عن الحقيقة ؟

يعود ابن سينا مرات الى هذا الموضوع في النجاة وفي الاشارات، ويحصر المعرفة والعلم في التصور والتصديق، واما آلتاهما فهما الحدّ والقياس . وفي ذلك يقول محمد بن المجلي بن الصائغ العنبري (الخفيف) :

ابلغ العالمين عني بانـي كلُّ علمي تصوُّرٌ وقياسُ (١١)
قد كشفتُ الاشياء بالفعل حتى ظهرت لي وليس فيها التباسُ

والتصوّر هوالعلم الأول، ويُكتَسَب بالحدّ وما يجري مجراه، مثل تصوّرنا ماهية الانسان ؛ والتصديق انما يُكتَسَب بالقياس او ما يجري مجراه .

وطريقة العقل في الكشف عن الحقائق هي الحدس أو الفكرة . يقول ابن سينا : « الحدس جودة حركة للذهن الى اقتناص الحد الاوسط من تلقاء نفسها : مثل أن يرى الانسان القمر، وانه يضيء من جانبه الذي يلي الشمس على أشكاله، فيقتنص ذهنه بحدسه

---

(١٠) التوفيق بين ارسطو وافلاطون

(١١) عيون الانباء ج ٢ ص ٣١٦

حـدا أوسط وهو أن سبب ضوئه من الشمس ... والفكرة حركة ذهـن الانسان تحتـو المبادىء للمطالب ليرجع منهـا الى المطالب » (١٢) .

ويروي لنـا المسعودي في الموضوع أن الواثق بالله العباسي سأل من حضر مجلسه من العلمـاء عن الطريق الذي أدرك الانسان بـه الطـب . فقال منهم قائل : زعـم طوائف من الاطباء أن هذا الطريـق هو التجربة فقط ، وحدوه بأن يتكرر الحس على محسوس واحد فـي أحوال متغايرة ، فيوجد بالحس في آخـر الاحوال كما يوجد في أولها » (١٣) ويقول ابن ابـي اصيبعة : « انـه قد يكون حصل منها شيء بطريـق الالهام، كما هو لكثير من الحيوانات ... فالثور يفرق بـين الحشائش المتشابهة في صورها، ويعرف مـا يوافقه منها فيرعاه، وما لا يوافقـه فيتركه ، مع نهمه وكثرة اكلـه وبلادة ذهنه » (١٤) . ويضيـف « وبالجملة فانه قد يكون من هذا ومما وقـع بالتجربة والاتفاق والمصادفة اكثر مـا حصلوه من هـذه الصناعة » .

وهنـا اشارة مهمة لمـا للصدفة والاتفاق من قيمة فـي الاكتشـاف العلمـي .

ويواصل ابـن ابي اصيبعة قائلا : « ثـم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب مـا شهدوه وأدتـه اليه فِطرهم ؛ ثـم انهـم تأملوا ما حصل لهـم من الاشياء الكثيرة، واستخرجوا عللهـا، والمناسبات التي بينهـا فَتَحَصَّل لهم من ذلك قوانين كليـة ومبادىء منها يبتدي بالتعلـم والتعليم ». ويصنف ابـن سينا النفس العاقلة مراتب تختص بميـزات مختلفة، فهي أولاً مستعدة لقبول الصور العقليـة، وتسمى اذن العقـل الهيولاني ، ثـم هي تحصل فيها التصورات والتصديقات البديهية ، وهذه

---

(١٢) شفـاء ، المنطـق ٢٥٩

(١٣) مـروج الذهب ، ج ٤ ص ٣٠ ط مصـر

(١٤) عيون الانباء ج ١ ص ٢٦

مرتبة العقل بالملكة .

وتنتقل من هذه المبادىء والمقدمات الى المطالب الفكرية البرهانية، وتصير العقل بالفعل، ثم تكون الصورة العقلية حاضرة بالفعل ينعم صاحبها بالنظر اليها ، وهي العقل المستفاد، وهي عقل النفس القدسية التي ترتقي الى منزلة العارفين والصديقين .

والى هذه المعاني يرمي ابن سينا حين يقول :

هذّب النفس بالعلوم لترقى وذر الكل فهي للكل بيتُ
انما النفس كالزجاجة، والعلمُ سراج، وحكمة الله زيتُ
فاذا اشرقت فانك حي واذا اظلمت فانك ميتُ

فيرى ابن سينا ان « العملية العقلية لا بد منها لتكتسب النفس ملكة الاتصال بالعقل الفعال ؛ فهي في الواقع ليست سببا مباشرا للمعرفة ، وانما هي صقال للنفس فقط . واما المعرفة ذاتها فهي فيض، او اذا شئت فقل : انطباع في النفوس المجلوّة المتهيئة للارتسام ، وهذا يشمل سائر المعارف حتى المعقولات الاولى ؛ فحصولها فيض علوي ونور الهي (وفي الخلاصة) اذن فالجسم لا بد منه للعملية العقلية ، التي لا بد منها لصقل النفس ، الذي لا بد منه للاتصال بالعقل الفعال وادراك المعارف منه ... » وفكرة الاتصال بالملأ الاعلى ، ليست عند ابن سينا مستمدة من الفلسفة الافلاطونية ؛ بل هذا القرآن بين يديه مفعم بقصص الانبياء وبأخبار الرسل الذين اتصلوا بالله سبحانه ؛ وفي القرآن قصة العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه علما ... « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » .

فالنفس والجسد في مبدأ امرهما مرتبطان زمنيا ، والنفس مغايرة للبدن، وهي جوهر روحي مجرد ، تتأثر في ملكاتها الخلقية بالجسد، والنفس باقية بعد انحلال البدن ، فاذا ما فارقته وزالت عنها العوائق المادية وانساقت الى اسواقها ، الى الكمالات ، فهي تتصل بالفيض الالهي . وذاك الشأن بالنسبة الى العارفين المتنزهين ، « فاذا وضع

عنهم درن مقارنة البدن وانفكوا عن الشواغل ، خلصوا الى عالم القدس والسعادة ، وانتقشوا بالكمال الاعلى ، وحصلت لهم اللذة العليا » (١٥) .

ويرفع ابو نصر الفارابي الدعوات في هذا الشأن الى الله ، جلّ وعلا ، مبتهلا بقوله : « امنحني فيضا من العقل الفعال ، يا ذا الجلال والافضال ؛ هذب نفسي بانوار الحكمة ، واوزعني شكر ما اوليتني من نعمة ؛ ارني الحق حقا والهمني اتباعه ، والباطل باطلا واحرمني اعتقاده واستماعه؛ هذّب نفسي من طينة الهيولي ، انك انت العلة الاولى ، (الكامل) :

هذّب بفيض منك ربّ الكل من كدر الطبيعة والعناصر عنصري

... واطلع على ظلماء (نفسي) شمسا من العقل الفعال ، وامطْ عنها ظلمات الجهل والضلال . واجعل ما في قواها بالقوة كامنا بالفعل ، واخرجها من ظلمات الجهل الى نور الحكمة وضياء العقل ... » (١٦) وهذا ابن الهيثم عند وصفه لطريقته في البحث العلمي، وبعد عرضه لما تحلّى به من الصبر والتحفظ والنقد والتريث، يتوجه في البدء والنهاية الى قوة متسامية ، لتمتد رعايتها على كافة الخلق ، يسألها الهداية والعون والتوفيق : « وما نحن مع جميع ذلك برآء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكنا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمد المعونة في جميع الامور » .

فهو العالم الحق ، العامل المجتهد ، الطموح المتواضع ، العارف حق المعرفة بمنزلة البشرية وحدودها ، المؤمن بأن لا هادي لمن لم يهده الله .

---

(١٥) الاشارات ج ٢ ص ١٩٦

(١٦) عيون الانباء ج ٣ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

فالعلم في نظره جدّ وطلب من جهة ، وحدس والهام من جهة اخرى؛ وهو نور يقذفه الله في افئدة من اصطفى من عباده ، شارحا صدورهم كاشفا لهم الخفايا والاسرار .

« فاذا ثبت هذا وجاز أن يكون في الناس عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، وان تكون فيهم مراتب ودرجات، جاز أن يختصّ الله بحكمته ورحمته قوما ويصطفيهم من خلقه، ويجعلهم رسلا اليهم ويؤيدهم، ويفضّلهم بالنبوة ويعلمهم بوحي منه ما ليس في وسع البشر (ان يعلموه ليعلّموا الناس ويرشدوهم الى ما فيه صلاح امورهم دنيا ودينا) » (١٧) .

ويؤاخذ البيروني ابا بكر الرازي على كتاب « سر الاسرار » بعد ما كان متشوقا اليه نيفا واربعين سنة ، ولخّص قوله فيه بالآية الكريمة : (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور). وللرازي كتاب فيما يرومه من اظهار ما يدعي من عيوب الاولياء . فيقول ابن ابي اصيبعة في شأنه : « وهذا كتاب ، ان كان قد الف والله أعلم ، فربما ان بعض الاشرار المعادين للرازي قد الفه ونسبه اليه ليسيء من يرى ذلك الكتاب او يسمع به الظن بالرازي ... حتى ان بعض من يذم الرازي، بل يكفّره، كعلي بن رضوان المصري (ت ٤٦٠هـ) (١٨) وغيره يسمون ذلك الكتاب : كتاب الرازي في مخاريق الانبياء » (١٩) .

ويقول ابن سينا عن محمد بن زكرياء الرازي انه « متكلف

---

(١٧) من كتاب أعلام النبوة لابي حاتم الرازي في الرد على محمد بن زكريا الرازي وقد اتهم بانكار النبوة . رسائل الرازي ص ٢٩٩

(١٨) ابو الحسن علي بن رضوان الطبيب المصري ، ينسب اليه « كتاب في الرد على الرازي في العلم الالهي واثبات الرسل » ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٠٥

(١٩) عيون الانباء ج ٢ ص ٣٥٩

فضولي في شروحه في الالهيـــات وتجاوز قدره في بسط الجراح، والنظـــر في الابوال والبرازات ، لا جـــرم فضح نفسه وأبدى جهلـــه فيما حاوله ورامـــــــه » (٢٠) .

ففـــي الخلاصة ان طلب العلم طموح وشوق للخروج من الحيرة ، و « لادراك ما بـــه تنكشف تمويه الظنون ، وتنقشع غيابات المتشكك المفتـــون » . فكيف يصل الانسان الى اليقـــين وكيف يقف على الحـــق الذي لا يمازجه شـــك ؟

لا شـــك ان العقل وسيلة قويـــة ناجعة ، « حبانا بها اللـــه لننال ونبلغ من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيلـــه وبلوغه » ، والحس منطلق للمعرفة لا بـــد منه ، والحدس والالهام لهما دور مهـــم في سبيل الحق ، والتجربة والرياضة معينان قويان يخرجان نفس الانسان الى كماله الممكن لـــه في حدّي العلم والعمل ...

ولكـــنّ من فوق كل ذلك فيض ربانـــي ، والهام من اللـــه يهدي بـــه من يلهم ، فيوقظ النفس من نومها ، « ويلهمها فجورها وتقواها » (٢١) ووحي اختَصَّ بـــه انبياءه الصديقين وفضّلهم على الناس جميعـــا ، وجعلهم ادلّـــة لهـــم وأيمّة يقتدون بهم ... فخلصوا الى عالـــم القدس والسعادة وانتقشوا بالكمال الاعلى ، وحصلت لهـــم اللذة العليا ؛ نفوس كاملة اتصلت بالفيض الالهـــي عند سدرة المنتهى تحت عرش الرحمـــان وفي عالمـــه الاول : ناظرة الى ذاتـــه (وجوه يومئذ ناضرة الى ربهـــا ناظـــرة) (٢١) .

د. محمد سويسي

---

(٢٠) انظر مقال حسين نصر « مناظرة بين البيروني وابن سينا » ، رسالة اليونسكو ، جويلية ١٩٧٤ ص ٢٧ — ٢٩ ورسائل الرازي ص ٢٩٠

(٢١) سورة الشمس ، ٨